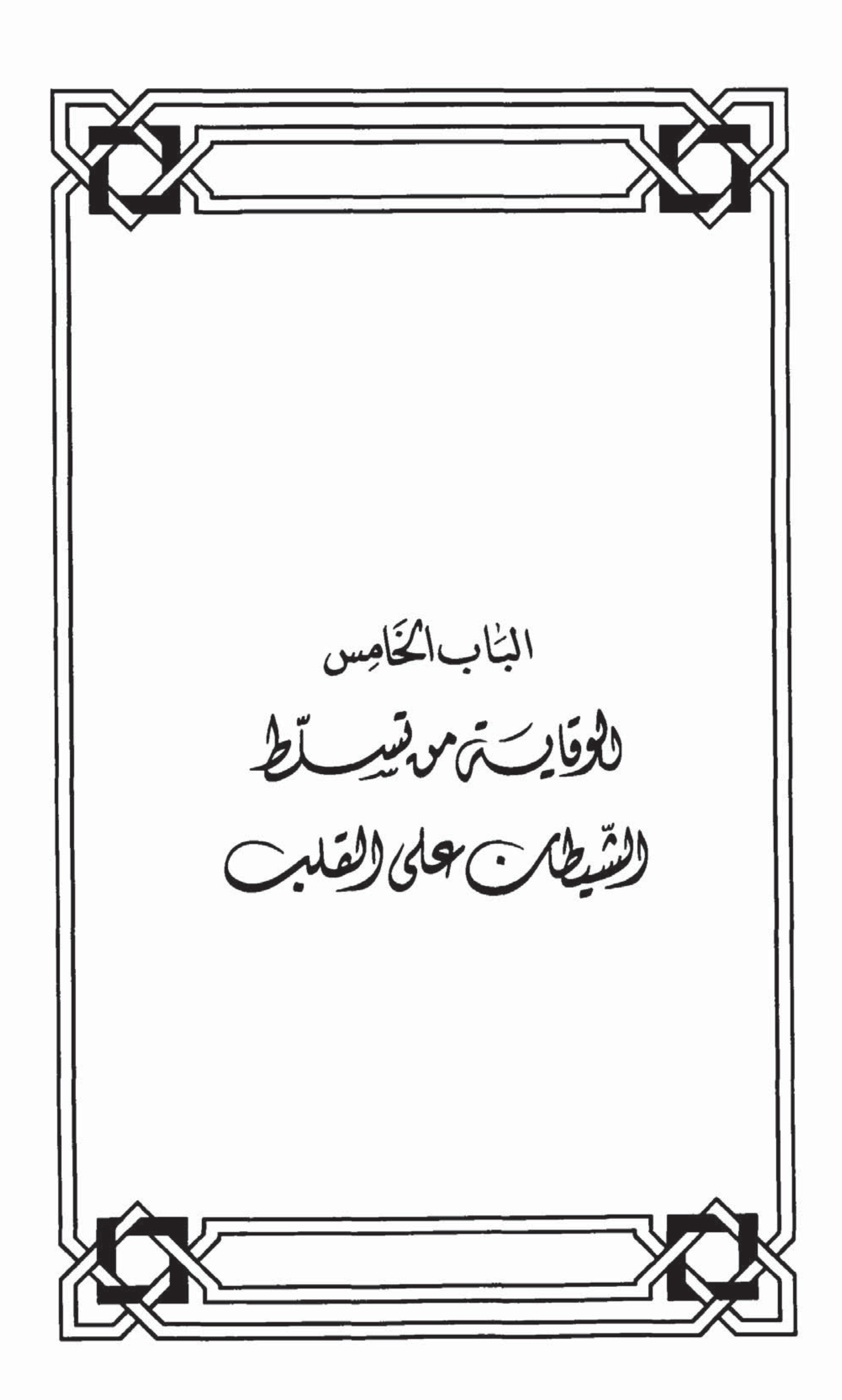


الباب الخامس

الوقاية من تسلط الشيطان على القلب

الفصل الأول

علاج مرض القلب بالشيطان

[دائرة تسلط الشيطان على العبد][1]:

إن الله سبحانُه بحكمَتهِ سلَّطَ على العَبدِ عَدُوّاً عالماً بطرقِ هلاكهِ وأسبابِ الشرِّ الذي يُلقيهِ فيه مُتفنِّناً فيها، خَبيراً بها، حَريصاً عليها، لا يفترُ عنه يقظَةً ولا مناماً، ولا بدَّ لهُ من واحدةٍ من ستٍّ ينالُها منه:

إحداها ـ وهي غايةُ مرادهِ منه ـ: أن يَحُولَ بينه وبينَ العلمِ والإيمانِ، فيُلقيَهُ في الكُفرِ؛ فإذا ظفِرَ بذلكَ فرغَ منه واستراحَ.

فإنْ فاتَتْهُ هذه، وهُديَ للإسلامِ حَرِصَ على تلوِ الكفرِ، وهي البِدعَةُ ـ وهي أحبُّ إليهِ من المعصيَةِ؛ فإنَّ المَعصيَةَ يُتابُ منها، والبدعَةُ لا يُتابُ منها ـ؛ لأنَّ صاحبَها يرى أنَّهُ على هُدىً.

وفي بَعضِ الآثارِ: يقولُ إبليسُ: أهلكتُ بني آدمَ بالذُّنوبِ، وأهلكوني بالاستغفار وبلا إلـٰهَ إلا الله، فلمَّا رأيتُ ذلكَ بثَثْتُ فيهم الأهواءَ، فهم يُذنبونَ ولا يتوبونَ، لأنَّهُم يَحسَبُونَ أنَّهُم يُحسِنونَ صُنعاً.

فإذا ظفِرَ منه بهذهِ صيَّرهُ من رُعاتِه وأُمرائِه.

فإنْ أعجَزَتهُ ألقاهُ في الثالثة؛ وهي الكبائرُ.

فإنْ أعجَزَته ألقاه في اللَّمَم؛ وهي الرابعة، وهي الصغائر.

---

(١) جاءت هذه الفقرة في كتاب (مفتاح دار السعادة): ١/ ٣٧٢.

فإنْ أعجزَتْهُ شغَلَهُ بالعَملِ المفضولِ عمَّا هو أفضلُ منه لِيُرْتِجَ[1] عليه الذي بينهما؛ وهي الخامسةُ.

فإنْ أعجزَهُ ذلكَ صارَ إلى السَّادسَة؛ وهي تَسليطُ حزبِه عليه يُؤْذونَهُ ويشتِمونَهُ ويبهتونَهُ ويرمونَهُ بالعظائمِ؛ ليحزنَهُ ويشغَلَ قلبهُ عن العلمِ والإرادةِ وسائرِ أعمالهِ.

فكيفَ يُمكنُ أن يحترزَ منه مَن لا علمَ له بهذه الأمور ولا بعدوِّهِ، ولا بما يُحصِّنُهُ منه؟ فإنَّهُ لا يَنجو من عَدوِّهِ إلا مَن عَرَفَ طريقَه التي يأتيهِ منها وجيشَه الذي يستعينُ به عليهِ، وعَرَفَ مداخلَهُ ومخارجَهُ، وكيفيَّةَ محاربتهِ، وبأيِّ شيءٍ يحاربهُ، وبماذا يُداوي جراحتَهُ، وبأيِّ شيءٍ يستمدُّ القوَّةَ لقتالهِ ودفعهِ؟!.

وهذا كلُّهُ لا يَحصُلُ إلا بالعلمِ، فالجاهلُ في غفلةٍ وعمىً عن هذا الأمرِ العَظيمِ والخَطْبِ الجسيمِ.

ولهذا جاءَ ذِكْرُ هذا العدُوِّ وشأنهِ وجُنودهِ ومكايدهِ في القرآنِ كثيراً جدّاً؛ لحاجَةِ النُّفوسِ إلى معرفَةِ عدوِّها، وطرقِ محاربتهِ ومجاهدتهِ، فلولا أنَّ العلمَ يكشفُ عن هذا لما نجا مَن نجا منه، فالعلمُ وثَمَرَتُه هو الذي تحصُلُ به النَّجاةُ.

[خطر الشيطان أكبر من خطر النفس]:

هذا الباب من أهم أبواب الكتاب وأعظمها نفعاً، والمتأخرون من أرباب السلوك لم يعتنوا به اعتناءهم بذكر النفس وعيوبها وآفاتها، فإنهم توسعوا في ذلك، وقصروا في هذا الباب.

---

(١) أي ليغلق.

ومن تأمل القرآن والسنة وجد اعتناءهما بذكر الشيطان ومحاربته أكثر من ذكر النفس، فإن النفس المذمومة ذكرت في قوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣] واللوامة في قوله: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]، وذكرت النفس المذمومة في قوله: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠].

فأما الشيطان فذُكر في عدة مواضع، وأفردت له سورة تامة[١]. فتحذير الرب تعالى لعباده منه جاء أكثر من تحذيره من النفس، وهذا هو الذي لا ينبغي غيره؛ فإن شر النفس وفسادها ينشأ من وسوسته، فهي مركَبُه وموضع شره، ومحل طاعته.

وقد أمر الله سبحانه بالاستعاذة منه عند قراءة القرآن وغير ذلك، وهذا لشدة الحاجة إلى التعوذ منه.

ولم يأمر بالاستعاذة من النفس في موضع واحد، وإنما جاءت الاستعاذة من شرها في خطبة الحاجة في قوله: (ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا)[٢].

وقد جمع النبي ﷺ بين الاستعاذة من الأمرين في الحديث، الذي رواه الترمذي وصححه عن أبي هريرة: أن أبا بكر الصديق قال: يا رسول الله! علمني شيئاً أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت، قال: (قل: اللهم عالمَ الغيب والشهادة فاطر السماوات والأرض ربّ كل شيء ومليكه. أشهد أن لا إلـه إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشِرْكه، وأن أقترف على نفسي سوءاً أو أجُرَّه إلى مسلم، قُلْهُ إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك)[٣].

---

(١) لعلها سورة الفلق، كما قال الفقي.

(٢) أخرجه أبو داود (٢١١٨)؛ وغيره.

(٣) أخرجه أبو داود (٥٠٦٧)؛ والترمذي (٣٣٩٢).

فقد تضمن هذا الحديث الشريف الاستعاذة من الشر وأسبابه وغايته، فإن الشر كله إما أن يصدر من النفس أو من الشيطان، وغايته: إما أن يعود على العامل، أو على أخيه المسلم، فتضمن الحديث مصدري الشر اللذين يصدر عنهما، وغايتيه اللتين يصل إليهما.

[الاستعاذة بالله عند قراءة القرآن]:

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٨ - ١٠٠].

ومعنى (استعذ بالله) امتنع به واعتصم به والجأ إليه.

ومصدره الْعَوْذ، والْعِيَاذ، والْمَعَاذ، وغالب استعماله في المستعاذ به.

ومنه قول النبي ﷺ: (لقد عذتِ بِمَعاذ)[1] وأصل اللفظة: من اللجأ إلى الشيء والاقتراب منه، ومن كلام العرب «أطيب اللحم عُوذه» أي الذي قد عاذ بالعظم واتصل به. وناقة عائذ: يعوذ بها ولدها، وجميعها (عُوذ) كحُمُر.

ومنه في حديث الحُديبية: «معهم العُوذ المطافيل»[2] والمطافيل: جمع مُطْفِلٍ، وهي الناقة التي معها فصيلها.

قالت طائفة - منهم صاحب جامع الأصول -: استعار ذلك للنساء، أي معهم النساء وأطفالهم.

ولا حاجة إلى ذلك، بل اللفظ على حقيقته، أي قد خرجوا إليك

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٢٥٥).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٢٧٣١).

بدوابهم ومراكبهم حتى أخرجوا معهم النوق التي معها أولادها .

فأمر سبحانه بالاستعاذة به من الشيطان عند قراءة القرآن. وفي ذلك وجوه:

منها: أن القرآن شفاء لما في الصدور يُذْهب لما يلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات والإرادات الفاسدة، فهو دواء لما أَمَرَّه فيها الشيطان، فأمر أن يطرد مادة الداء ويُخلي منه القلب ليصادف الدواءُ محلاً خالياً، فيتمكَّن منه، ويؤثر فيه، كما قيل:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى ... فصادف قلباً خالياً فتمكنا

فيجيء هذا الدواء الشافي إلى قلب قد خلا من مزاحم ومُضادٍّ له فينجع فيه.

ومنها: أن القرآن مادة الهدى والعلم والخير في القلب، كما أن الماء مادة النبات، والشيطان نار يحرق النبات أوّلاً فأولاً، فكلما أحس بنبات الخير في القلب سعى في إفساده وإحراقه، فأمر أن يستعيذ بالله منه لئلا يفسد عليه ما يحصل له بالقرآن.

والفرق بين هذا الوجه والوجه الذي قبله؛ أن الاستعاذة في الوجه الأول لأجل حصول فائدة القرآن، وفي الوجه الثاني لأجل بقائها وحفظها وثباتها.

وكأن من قال: إن الاستعاذة بعد القراءة لاحَظَ هذا المعنى، وهو لعَمْرُ الله مَلْحَظ جيد، إلا أن السنة وآثار الصحابة إنما جاءت بالاستعاذة قبل الشروع في القراءة. وهو قول جمهور الأمة من السلف والخلف، وهو محصّلة للأمرين.

ومنها: أن الملائكة تدنو من قارئ القرآن وتستمع لقراءته، كما في

حديث أُسَيد بن حُضَير لما كان يقرأ ورأى مثلَ الظُّلَّة فيها مثل المصابيح، فقال النبي ﷺ: (تلك الملائكة)[1] والشيطان ضد الملَك وعدوُّه. فأمر القارئ أن يطلب من الله مباعدة عدوه عنه حتى يحضره خاصته وملائكته، فهذه وليمة لا يجتمع فيها الملائكة والشياطين.

ومنها: أن الشيطان يُجْلِب على القارئ بخيله ورَجْله، حتى يشغله عن المقصود بالقرآن. وهو تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد به المتكلم به سبحانه، فيحرص بجهده على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن؛ فلا يكمل انتفاع القارئ به، فأمر عند الشروع أن يستعيذ بالله منه.

ومنها: أن القارئ مناج لله بكلامه. (والله تعالى أشد أَذَناً للقارئ الحسن الصوت بالقرآن من صاحب الْقَيْنَة إلى قينته)[2] والشيطان إنما قراءته الشعر والغناء، فأمر القارئ أن يطرده بالاستعاذة عند مناجاته واستماع قراءته.

ومنها: أن الله سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته، والسلف كلهم على أن المعنى: إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته. كما قال الشاعر في عثمان.

تَمَنَّىٰ كِتَابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ ... وَآخِرَهُ لاقَىٰ حِمَامَ المَقَادِرِ

فإذا كان هذا فعله مع الرسل فكيف بغيرهم؟.

ولهذا يغلِّط القارئ تارة ويخلط عليه القراءة، ويشوشها عليه، فيخبط عليه لسانه، أو يشوش عليه فهمه وقلبه، فإذا حضر عند القراءة لم يعدم منه القارئ هذا، أو هذا؛ وربما جمعهما له، فكان من أهم الأمور: الاستعاذة بالله منه عند القراءة.

---

(١) أخرجه البخاري معلقاً برقم (٥٠١٨)؛ ومسلم (٧٩٦).
(٢) أخرجه ابن ماجه برقم (١٣٤٠) ومعنى أذناً: أي سماعاً.

ومنها: أن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهُمُّ بالخير، ويدخل فيه. فهو يشتد عليه حينئذٍ ليقطعه عنه، وفي الصحيح عنه ﷺ: (إن شيطاناً تَفَلَّتَ عليّ البارحة، فأراد أن يقطع عليّ صلاتي) ـ الحديث[1] وكلَّما كان الفعل أنفع للعبد وأحب إلى الله كان اعتراض الشيطان له أكثر.

وفي مسند الإمام أحمد من حديث سَبْرة بن أبي الفاكه أنه سمع النبي ﷺ يقول: (إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتُسْلِم وَتَذر دينك ودين آبائك وآباء آبائك، فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتَذَر أرضك وسماءك؟ وإنما مثل المهاجر كالفَرَسِ في الطِّوَل، فعصاه وهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد ـ وهو جهاد النفس والمال فقال: تقاتل فتُقتل، فتنكح المرأة ويُقسم المال؟ قال فعصاه فجاهد)[2].

فالشيطان بالرصد للإنسان على طريق كل خير.

وقال منصور عن مجاهد: ما من رفقةٍ تخرج إلى مكة إلا جهز معهم إبليس مثل عِدَّتِهم. رواه ابن أبي حاتم في تفسيره.

فهو بالرصد، ولا سيما عند قراءة القرآن، فأمر سبحانه العبد أن يحارب عدوه الذي يقطع عليه الطريق ويستعيذ بالله منه أولاً، ثم يأخذ في السير، كما أن المسافر إذا عرض له قاطع طريق اشتغل بدفعه، ثم اندفع في سيره.

ومنها: أن الاستعاذة قبل القراءة عنوان وإعلام بأن المأتيّ به بعدها القرآن، ولهذا لم تشرع الاستعاذة بين يدي كلام غيره، بل الاستعاذة مقدمة وتنبيه للسامع أن الذي يأتي بعدها هو التلاوة، فإذا سمع السامع الاستعاذة

---

(١) متفق عليه (خ٤٦١، م٥٤١).

(٢) أخرجه النسائي برقم (٣١٣٤).

استعد لاستماع كلام الله، ثم شُرِع ذلك للقارئ، وإن كان وحده، لما ذكرنا من الحكَمِ وغيرها.

فهذه بعض فوائد الاستعاذة.

وقال أحمد في رواية حنبل: لا يقرأ في صلاة ولا غير صلاة، إلا استعاذ؛ لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨].

وقال في رواية ابن مشيش: كلما قرأ يستعيذ(١).

---

(١) استطرد المؤلف ـ رحمه الله ـ هنا بمناسبة الحديث عن الاستعاذة ليتحدث عن صيغة الاستعاذة، فقال:

قال عبد الله بن أحمد: سمعت أبي إذا قرأ استعاذ، يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم.

وفي (المسند) والترمذي من حديث أبي سعيد الخدري قال: كان النبي ﷺ إذا قام إلى الصلاة استفتح ثم يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم: من هَمْزِهِ ونَفْخِهِ ونَفْثِهِ».

وقال ابن المنذر: جاء عن النبي ﷺ أنه كان يقول قبل القراءة: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

واختار الشافعي وأبو حنيفة والقاضي في (الجامع) أن يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» وهو رواية عن أحمد؛ لظاهر الآية، وحديث ابن المنذر.

وعن أحمد من رواية عبد الله: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم» لحديث أبي سعيد، وهو مذهب الحسن وابن سيرين.

ويدل عليه ما رواه أبو داود في قصة الإفْكِ: أن النبي ﷺ جلس وكشف عن وجهه وقال: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم».

وعن أحمد رواية أخرى أنه يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم» وبه قال سفيان الثوري ومسلم بن يَسار، واختاره القاضي في (المجرد) وابن عقيل، لأن قوله: ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ ظاهره أنه يستعيذ بقوله: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». وقوله في الآية الأخرى: ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ يقتضي أن يلحق بالاستعاذة وصفه بأنه هو السميع العليم في جملة مستقلة بنفسها مؤكدة بحرف (إن) لأنه سبحانه هكذا ذكر. =

[الاستعاذة من شياطين الإنس والجن]:

وقال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧ ـ ٩٨].

والهمزات: جمع همزة كتمرات وتمرة. وأصل الهمز الدفع.

قال أبو عبيد عن الكسائي: همزته، ولَمَزْتُه، وَلَهَزته، ونهزته إذا دفعته.

والتحقيق: أنه دفع بنَخْز وغَمْز يشبه الطعن، فهو دفع خاص، فهمزات الشياطين: دفعهم الوساوس والإغواء إلى القلب.

قال ابن عباس والحسن: همزات الشياطين: نزغاتهم ووساوسهم.

وفسرت همزاتهم بنفخهم ونفثهم، وهذا قول مجاهد.

وفسرت بخنقهم وهو الموتة التي تشبه الجنون.

وظاهر الحديث أن الهمز نوع غير النفخ والنفث.

وقد يقال ـ وهو الأظهر ـ: إن همزات الشياطين إذا أفردت دخل فيها جميع إصاباتهم لابن آدم، وإذا قرنت بالنفخ والنفث كانت نوعاً خاصاً، كنظائر ذلك.

ثم قال: ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾.

قال ابن زيد: في أموري.

= وقال إسحاق: الذي أختاره ما ذكر عن النبي ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من هَمْزه ونفخه ونَفْثِه».

وقد جاء في الحديث تفسير ذلك، قال: «وهمزه المُوتَةُ، ونفخه: الكِبْر، ونفثه: الشعر».

وقال الكلبي: عند تلاوة القرآن.

وقال عكرمة: عند النزع.

فأمره أن يستعيذ من نوعي شَرٍّ هَمٍّ إصابتهم له بالهمز وقربهم ودنوّهم منه.

فتضمنت الاستعاذة أن لا يمسوه ولا يقربوه.

وذكر ذلك سبحانه عقب قوله: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٦] فأمره أن يحترز من شر شياطين الإنس بدفع إساءتهم إليه بالتي هي أحسن، وأن يدفع شر شياطين الجن بالاستعاذة منهم.

ونظير هذا قوله في الأعراف: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] فأمره بدفع شر الجاهلين بالإعراض عنهم، ثم أمره بدفع شر الشيطان بالاستعاذة منه فقال: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

ونظير ذلك قوله في سورة فصلت ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤].

فهذا لدفع شر شياطين الإنس ثم قال: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت: ٣٦][1].

---

(١) استطرد هنا المؤلف ـ رحمه الله ـ وانتقل لبيان الفرق بين ختام كل من آيتي فصلت والأعراف، فقال:

وقال ها هنا: «إنه هو السميع العليم» فأكد بإنّ، وبضمير الفصل، وأتى باللام في «السميع العليم».

وقال في الأعراف: ﴿ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

وسر ذلك ـ والله أعلم ـ أنه حيث اقتصر على مجرد الاسم ولم يؤكده أريد إثبات مجرد الوصف الكافي في الاستعاذة والإخبار، إنه سبحانه يسمع ويعلم، فيسمع =

= استعاذتك فيجيبك ويعلم ما تستعيذ منه فيدفعه عنك، فالسمع لكلام المستعيذ والعلم بالفعل المستعاذ منه، وبذلك يحصل مقصود الاستعاذة، وهذا المعنى شامل للموضعين.

وامتاز المذكور في فصلت بمزيد التأكيد والتعريف والتخصيص؛ لأن سياق ذلك بعد إنكاره سبحانه على الذين شكوا في سمعه لقولهم وعلمه بهم.

كما ثبت في (الصحيحين) من حديث ابن مسعود، قال: «اجتمع عند البيت ثلاثة نفر قرشيان وثقفي، أو ثقفيان وقرشي، كثيرٌ شحمُ بطونهم، قليلٌ فقه قلوبهم، فقالوا: أترون الله يسمع ما نقول؟ فقال أحدهم: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا، وقال الآخر: إن يسمع بعضه سمعه كله، فأنزل الله عزَّ وجلّ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٢-٢٣] متفق عليه.

فجاء التأكيد في قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ في سياق هذا الإنكار: أي هو وحده الذي له كمال قوة السمع وإحاطة العلم، لا كما يظن به أعداؤه الجاهلون: أنه لا يسمع إن أخفوا وأنه لا يعلم كثيراً مما يعملون، وحَسَّنَ ذلك أيضاً: أن المأمور به في سورة فصّلت دفع إساءته إليه بإحسانه إليهم، وذلك أشق على النفوس من مجرد الإعراض عنهم ولهذا عقبه بقوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥] فحسن التأكيد لحاجة المستعيذ.

وأيضاً فإن السياق ههنا لإثبات صفات كماله وأدلة ثبوتها وآيات ربوبيته وشواهد توحيده ولهذا عقب ذلك بقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ [فصلت: ٣٧] وبقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ [فصلت: ٣٩] فأتى بأداة التعريف الدالة على أن من أسمائه (السميع العليم) كما جاءت الأسماء الحسنى كلها معرّفة، والذي في الأعراف في سياق وعيد المشركين وإخوانهم من الشياطين ووعد المستعيذ بأن له ربّاً يسمع ويعلم، وآلهة المشركين التي عبدوها من دونه ليس لهم أعين يبصرون بها ولا آذان يسمعون بها، فالله سميع عليم، وآلهتهم لا تسمع ولا تبصر ولا تعلم، فكيف يُسَوُّونها به في العبادة؛ فعلمت أنه لا يليق بهذا السياق غير التنكير، كما لا يليق بذلك غير التعريف، والله أعلم بأسرار كلامه.

ولما كان المستعاذ منه في سورة (حم المؤمن) هو شر مجادلة الكفار في آياته وماترتب عليها من أفعالهم المرئيّة بالبصر قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦]، فإنه لما كان المستعاذ منه كلامهم وأفعالهم المشاهدة عياناً قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، وهناك المستعاذ منه غير مشاهد لنا، فإنه يرانا هو وقَبيلُه من حيث لا نراه. بل هو معلوم بالإيمان وإخبار الله ورسوله.

[لا بد من الصبر مع الاستعاذة]:

فالقرآن أرشد إلى دفع هذين العدوّين[1] بأسهل الطرق: بالاستعاذة والإعراض عن الجاهلين، ودفع إساءتهم بالإحسان.

وأخبر عن عظم حظ من لَقَّاه ذلك فإنه ينال بذلك كفّ شر عدوه وانقلابه صديقاً، ومحبة الناس له، وثناءهم عليه، وقهر هواه، وسلامة قلبه من الغِلِّ والحقد وطمأنينة الناس ـ حتى عدوه ـ إليه.

هذا غير ما يناله من كرامة الله وحسن ثوابه ورضاه عنه؛ وهذا غاية الحظ عاجلاً وآجلاً.

ولما كان ذلك لا يُنال إلا بالصبر قال: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾ [فصلت: ٣٥]، فإن النَّزِق الطائش لا يصبر على المقابلة.

ولما كان الغضب مركب الشيطان، فتتعاون النفس الغضبية والشيطان على النفس المطمئنة التي تأمر بدفع الإساءة بالإحسان ـ أمر أن يعاونها بالاستعاذة منه، فتُمِدّ الاستعاذة النفس المطمئنة فتقوى على مقاومة جيش النفس الغضبية، ويأتي مدد الصبر الذي يكون النصر معه، وجاء مدد الإيمان والتوكل، فأبطل سلطان الشيطان، فـ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٩٩].

[معنى ﴿ليس له سلطان على الذين آمنوا﴾]:

قال مجاهد وعكرمة والمفسرون: ليس له حجة.

والصواب: أن يقال: ليس له طريق أن يتسلط به عليهم: لا من جهة الحجة، ولا من جهة القدرة. فالقدرة داخلة في مسمى السلطان، وإنما سميت الحجة سلطاناً، لأن صاحبها يتسلط بها تسلط صاحب القدرة بيده.

وقد أخبر سبحانه أنه لا سلطان لعدوه على عباده المخلصين المتوكلين،

---

(١) العدوَّان هما: النفس الوارد ذكرها في الباب السابق، والشيطان الذي هو موضوع الحديث في هذا الباب.

فقال في سورة الحجر: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٣٩ ـ ٤٢].

وقال في سورة النحل: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [النحل: ٩٩ ـ ١٠٠].

تضمن ذلك أمرين:

أحدهما: نفي سلطانه وإبطاله على أهل التوحيد والإخلاص.

والثاني: إثبات سلطانه على أهل الشرك وعلى من تولاّه.

ولما علم عدو الله أن الله لا يُسَلِّطه على أهل التوحيد والإخلاص ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [سورة صَ: ٨٢ ـ ٨٣].

فعلم عدو الله أن من اعتصم بالله وأخلص له وتوكل عليه لا يقدر على إغوائه وإضلاله، وإنما يكون له السلطان على من تولاّه وأشرك مع الله، فهؤلاء رَعِيَّته وهو سلطانهم ومتبوعهم.

• • •

فإن قيل: فقد أثبت له السلطان على أوليائه في هذا الموضع، فكيف ينفيه في قوله: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ﴾ [سبأ: ٢٠ ـ ٢١].

قيل: إن كان الضمير في قوله: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾ [سبأ: ٢١] عائداً على المؤمنين فالسؤال ساقط، ويكون الاستثناء منقطعاً:

أي لكن امتحنّاهم بإبليس، لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك.

وإن كان عائداً على ما عاد عليه في قوله: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ ﴾ [سبأ: ٢٠] وهو الظاهر، ليصحّ الاستثناء المنقطع بوقوعه بعد النفي، ويكون المعنى: وما سلَّطناه عليهم إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة.

قال ابن قُتيبة: إن إبليس لما سأل الله النَّظِرَة فأنظَره قال: لأغوِيَنَّهُمْ ولأضِلَّنهم ولآمرنهم بكذا، ولأتخذنَّ من عبادك نصيباً مفروضاً، وليس هو في وقت هذه المقالة مستيقناً أن ما قدّره فيه يتمّ، وإنما قاله ظاناً، فلما اتبعوه وأطاعوه صَدّق عليهم ما ظنه فيهم، فقال تعالى: وما كان تسليطنا إياه إلا لنعلم المؤمنين من الشاكِّين، يعني نعلمهم موجودين ظاهرين فيحق القول ويقع الجزاء.

على هذا: فيكون السلطان ههنا على من لم يؤمن بالآخرة وشكَّ فيها، وهم الذين تولوه وأشركوه به فيكون السلطان ثابتاً لا منفياً، فتتفق هذه الآية مع سائر الآيات.

• • •

فإن قيل: فما تصنع بالتي في سورة إبراهيم حيث يقول لأهل النار: ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وهذا وإن كان قَوْلَه فإنه سبحانه أخبر به عنه مُقَرِّراً له، لا منكراً، يدل على أنه كذلك.

قيل: هذا السؤال جيد. وجوابه: أن السلطان المنفي في هذا الموضع: هو الحجة والبرهان، أي ما كان لي عليكم من حجة وبرهان أحتج به عليكم، كما قال ابن عباس: ما كان لي حجة أحتج بها عليكم أي: ما أظهرت لكم حجة إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي، وصدّقتم مقالتي، واتبعتموني بلا برهان ولا حجة.

وأما السلطان الذي أثبته في قوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ [النحل: ١٠٠]، فهو تَسلُّطه عليهم بالإغواء والإضلال، وتمكنه منهم، بحيث يؤزُّهم إلى الكفر والشرك ويُزعجهم إليه، ولا يَدَعُهم يتركونه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].

قال ابن عباس: تُغْريهم إغراء.

وفي رواية: تُشليهم إشلاء.

وفي لفظ: تحرضهم تحريضاً.

وفي آخر: تزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً.

وفي آخر: توقدهم أي تحركهم كما يحرك الماء بالإيقاد تحته.

قال الأخفش: توهجهم.

وحقيقة ذلك: أن (الأزّ) هو التحريك والتهييج، ومنه يقال لغليان القدر: الأزيز؛ لأن الماء يتحرّك عند الغليان.

ومنه الحديث: (لجوفه أزيز كأزيز المرْجَل من البكاء)[1].

قال أبو عبيدة (الأزيز): الالتهاب والحركة، كالتهاب النار في الحطب، يقال: إزّ قِدْرَك، أي ألهب تحتها بالنار، واتزت القدر إذا اشتد غليانها.

فقد حصل للأزّ، معنيان:

أحدهما: التحريك.

والثاني: الإيقاد والإلهاب.

وهما متقاربان، فإنه تحريك خاص بإزعاج وإلهاب.

---

(١) أخرجه أبو داود (٩٠٤).

فهذا من السلطان الذي له على أوليائه وأهل الشرك، ولكن ليس له على ذلك سلطان حجة وبرهان، وإنما استجابوا له بمجرد دعوته إياهم، لما وافقت أهواءهم وأغراضهم، فهم الذين أعانوا على أنفسهم ومكَّنوا عدوهم من سلطانه عليهم، لموافقته ومتابعته، فلما أعطوا بأيديهم واستأسروا له سُلِّط عليهم عقوبة لهم.

وبهذا يظهر معنى قوله سبحانه: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

فالآية على عمومها وظاهرها، وإنما المؤمنون يصدر منهم من المعصية والمخالفة التي تضادُّ الإيمان ما يصير به للكافرين عليهم سبيل بحسب تلك المخالفة، فهم الذين تَسَبّبوا إلى جعل السبيل عليهم، كما تَسبّبوا إليه يوم أحد بمعصية الرسول ومخالفته.

والله سبحانه لم يجعل للشيطان على العبد سلطاناً، حتى جعل له العبد سبيلاً إليه بطاعته والشرك به، فجعل الله حينئذ له عليه تسلّطاً وقَهراً.

فمن وجد خيراً فليَحْمَد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنّ إلا نفسه.

فالتوحيد والتوكل والإخلاص يمنع سلطانه، والشرك وفروعه يوجب سلطانه، والجميع بقضاء مَنْ أَزِمَّة الأمور بيده، ومَرَدُّها إليه، وله الحجة البالغة؛ فلو شاء لجعل الناس أمة واحدة، ولكن أبتْ حِكمته وحمده وملكه إلا ذلك.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٦-٣٧].

* * *

الفصل الثاني
ما يعتصم به العبد من الشيطان

قال ابن القيم رحمه الله :

قاعدة نافعة فيما يعتصم به العبد من الشيطان، ويستدفع به شره، ويحترز به منه[1]. وذلك عشرة أسباب

أحدها : الاستعاذة بالله من الشيطان[2].

الحرز الثاني: قراءة هاتين السورتين[3] فإن لهما تأثيراً عجيباً في الاستعاذة بالله من شره ودفعه والتحصن منه. ولهذا قال النبي ﷺ : (ما تعوذ المتعوذون بمثلهما)[4] وكان ﷺ يتعوذ بهما كل ليلة عند النوم[5]، وأمر عقبة أن يقرأ بهما دبر كل صلاة[6]. وقال ﷺ : (إن من قرأهما مع سورة الإخلاص ثلاثاً حين يمسي وثلاثاً حين يصبح كفته من كل شيء)[7].

الحرز الثالث: قراءة آية الكرسي، ففي (الصحيح) من حديث محمد ابن سيرين عن أبي هريرة قال: «وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان،

---

(١) جاء هذا الموضوع في كتاب (بدائع الفوائد): ٢/ ٢٦٧ وما بعدها.

(٢) سبق تفصيل هذا الموضوع في الفصل السابق.

(٣) المراد بهما: المعوذتان: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾.

(٤) رواه النسائي (٥٤٥٣)؛ والدارمي (٣٤٤٠).

(٥) رواه البخاري من حديث عائشة (٥٠١٧).

(٦) رواه أبو داود (١٥٢٣)؛ والترمذي والنسائي.

(٧) رواه أبو داود (٥٠٨٢)؛ والترمذي والنسائي.

فأتى آتٍ، فجعل يحثو من الطعام، فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ. . فذكر الحديث فقال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فقال النبي ﷺ: (صدقك وهو كذوب ذاك الشيطان)[١].

الحرز الرابع: قراءة سورة البقرة، ففي (الصحيح) من حديث سهل عن عبد الله عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، وأن البيت الذي تقرأ فيه البقرة لا يدخله الشيطان)[٢].

الحرز الخامس: خاتمة سورة البقرة، فقد ثبت في (الصحيح) من حديث أبي موسى[٣] الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: (من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه)[٤].

وفي الترمذي عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: (إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق بألفي عام أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة فلا يقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان)[٥].

الحرز السادس: أول سورة حم المؤمن إلى قوله: ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ مع آية الكرسي، ففي الترمذي من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر عن ابن أبي مليكة عن زرارة بن مصعب عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (من قرأ حم المؤمن إلى ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما حتى يمسي، ومن قرأهما حين يمسي حفظ بهما حتى يصبح)[٦]. وعبد الرحمن المليكي وإن كان قد تكلم فيه من قبل حفظه،

---

(١) رواه البخاري تعليقاً (٢٣١١).

(٢) رواه مسلم (٧٨٠).

(٣) هو في الصحيحين: عن أبي مسعود.

(٤) رواه البخاري (٤٠٠٨، ٥٠٥١)؛ ومسلم (٨٠٧، ٨٠٨).

(٥) رواه الترمذي (٢٨٨٢)؛ والدارمي (٣٣٨٧).

(٦) رواه الترمذي (٢٨٧٩)؛ والدارمي (٣٣٨٦).

فالحديث له شواهد في قراءة آية الكرسي وهو محتمل على غرابته.

الحرز السابع: لاإلٰه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، مائة مرة، ففي (الصحيحين) من حديث سمي مولى أبي بكر عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (من قال لا إلٰه إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير في يوم مئة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مئة حسنة، ومحيت عنه مئة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأتِ أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك)[1] فهذا حرز عظيم النفع، جليل الفائدة، يسير سهل على من يسره الله عليه.

الحرز الثامن: وهو من أنفع الحروز من الشيطان: كثرة ذكر الله عزَّ وجلّ

ففي الترمذي[2] من حديث الحارث الأشعري أن النبي ﷺ قال:

(إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها، ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وأنه كاد أن يبطئ بها، فقال عيسى: إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، فإما أن تأمرهم، وإما أن آمرهم.

فقال يحيى: أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي أو أعذب.

فجمع الناس في بيت المقدس فامتلأ، وقعدوا على الشُّرف، فقال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن:

أوّلهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق فقال: هذه داري

(١) رواه البخاري (٣٢٩٣)؛ ومسلم (٢٦٩١).

(٢) رواه الترمذي (٢٨٦٣).

وهذا عملي فاعمل وأدّ إليّ، فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك.

وأن الله أمركم بالصلاة فإذا صليتم فلا تلتفتوا، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت.

وأمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرة فيها مسك فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها، وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.

وأمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو، فأوثقوا يده إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه، فقال: أنا أفديه منكم بالقليل والكثير ففدى نفسه منهم.

وأمركم أن تذكروا الله فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً حتى أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله).

قال النبي ﷺ: (وأنا آمركم بخمس، الله أمرني بهن: السمع، والطاعة، والجهاد، والهجرة، والجماعة، فإن من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع. ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جثا[1] جهنم)، فقال رجل: يا رسول الله وإن صلى وصام، قال: (وإن صلى وصام، فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله).

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب صحيح. وقال البخاري: الحارث الأشعري له صحبة، وله غير هذا الحديث.

فقد أخبر النبي ﷺ في هذا الحديث أن العبد لا يحرز نفسه من

---

(١) جثا: جمع جثوة، وهي الجماعة المحكوم عليها بالنار.

الشيطان إلا بذكر الله، وهذا بعينه هو الذي دلت عليه سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ فإنه وصف الشيطان فيها بأنه الخناس، والخناس الذي إذا ذكر العبد الله انخنس وتجمع وانقبض، وإذا غفل عن ذكر الله التقم القلبَ، وألقى إليه الوساوس التي هي مبادئ الشر كله، فما أحرز العبد نفسه من الشيطان بمثل ذكر الله عزَّ وجلّ.

الحرز التاسع: الوضوء والصلاة، وهذا من أعظم ما يتحرز به منه، ولا سيما عند توارد قوة الغضب والشهوة، فإنها نار تغلي في قلب ابن آدم، كما في الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: (ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم، أما رأيتم إلى حمرة عينيه، وانتفاخ أوداجه، فمن أحس بشيء من ذلك فليلصق بالأرض)[1]. وفي أثر آخر: (إن الشيطان خلق من نار، وإنما تطفأ النار بالماء)[2] فما أطفأ العبد جمرة الغضب والشهوة بمثل الوضوء والصلاة فإنها نار، والوضوء يطفئها، والصلاة إذا وقعت بخشوعها والإقبال فيها على الله أذهبت أثر ذلك كله، وهذا أمر تجربته تغني عن إقامة الدليل عليه.

الحرز العاشر: إمساك فضول النظر والكلام والطعام ومخالطة الناس، فإن الشيطان إنما يتسلَّط على ابن آدم وينال منه غرضه من هذه الأبواب الأربعة[3].

[وخلاصة القول][4]:

كل ذي لب يعلم أنه لا طريق للشيطان عليه إلا من ثلاث جهات:

---

(١) رواه الترمذي (٢١٩١)؛ وابن ماجه (٤٠٠٠).

(٢) ضعفه الألباني (سلسلة الأحاديث الضعيفة: ٥٨٢).

(٣) سبق الحديث عن ذلك.

(٤) جاءت هذه الخلاصة في كتاب الفوائد، ص٣٣٤، ورقم الفائدة (١١٥).

أحدها: التزيُّد والإسراف، فيزيد على قدر الحاجة، فتصير فضلة، وهي حظ الشيطان ومدخله إلى القلب. وطريق الاحتراز منه، عدم إعطاء النفس تمام مطلوبها من غذاء، أو نوم، أو لذة، أو راحة، فمتى أغلقت هذا الباب، حصل الأمان من دخول العدو منه.

الثانية: الغفلة، فإن الذاكر في حصن الذكر، فمتى غفل فتح باب الحصن فولجه العدو، فيعسر عليه أو يصعب إخراجه.

الثالثة: تكلف ما لا يعنيه من جميع الأشياء.

* * *